

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

الكلية: الآداب واللغات

القسم: اللغة والآداب العربي

عنوان الليسانس: الأدب العربي

الشعبة: دراسات أدبية

التخصص: أدب عربي

السنة الثالثة

السادسي: الخامس

المادة: جماليات السرد العربي القديم

محاضرات في مقياس:

جماليات السرد العربي القديم

الأستاذة: دريالي وهيبة.

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

عنوان المحاضرة الخامسة: السرد في كتب الأخبار

اهتم الأدباء برواية الأخبار في التراث العربي الإسلامي ، وحفلت المصادر الأدبية برواية الأخبار وقصص الأعلام والأدباء والمشاهير في كل الفنون والعلوم، وتنافس الأدباء في تدوين الأخبار وتأليف الكتب في هذا المجال .

1-تعريف مصطلح الخبر :

نتناول مفهوم مصطلح الخبر في معاجم اللغة العربية ثم نذكر مفهومه الاصطلاحي .

أ- الخبر في اللغة:

ورد في المعاجم اللغوية مصطلح الخبر بالدلالات التالية:«الخبر بمعنى النبأ ، وجمع أخبار،واسخبرهُ :سأله عن الخبر،وطلب أن يُخبره به،وخبرت بالأمر؛أي علمته ،والاستخبار والتخبُّر :السؤال عن الخبر».

ومنه حمل الخبر الدلالات اللغوية التالية:العلم بالشيء أو السؤال عنه أو الإخبار عن الشيء ، ووردت كلمة الخبر في القرآن في سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَّا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾* .

وجاء في تفسير هاته الآية عند ابن كثير في قوله : « قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ؛ أي قد أعلمنا الله بأحوالهم».

ورد معنى الخبر هنا في هذه الآية بمعنى العلم «وقَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ»أعلمنا بالوحي إلى نبيه بعض أخباركم وهو مافي ضمائركم من الشر والفساد، ومنه اتضح لنا أن دلالة الخبر في هذه الآية بمعنى العلم بما خفي من الأسرار في صدور الأسرار، وكما وردت كلمة الخبر في سورة النمل،حيث قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لَأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبْرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾* .

معنى الخبر في الآية الكريمة بمعنى العلم،ومنه نجد أن مفهوم الخبر في القرآن الكريم ورد بمعنى العلم والعمل،ونجد أن مفهوم الخبر يحدده السياق القرآني في الآيات الكريمة، ومنه فالدلالة اللغوية لمصطلح الخبر تعني النبأ والعلم، وهي الدلالة التي نبحث عنها.

ب- الخبر في الاصطلاح :

إنَّ الخبر هو الأحداث أو الواقعة،التي يسردها شاهداها ،أو ينقلها عن سارد آخر، ويختلف عن الظرف والنادرة ؛إذ لايشترط فيها الطرافة، وقد لا تكون للإمتاع ، وأخذ العبرة ، وفيها ميل نحو التوفيقية .»

الخبر هو حادثة يرويها ساردها بمشاهدته لها،أو ينقلها عن شخص آخر، ويُعرض الخبر بغاية الفائدة، ولايكون الإمتاع هو غاية السارد في غالب الأحيان، وهو بهذا يتميز عن الطرائف وال نوادر، ويعد «الخبر نوع من توثيق الحوادث التي تجري في التاريخ السابق أو الراهن عن طريق الراوي ناقل الخبر .»

ارتبط الخبر بتوثيق الأحداث التاريخية من طرف السارد، وانتقل هذا المفهوم إلى الحكاية أو القصة ،والخبر كذلك هو توثيق الأحداث التاريخية السابقة بأسلوب الرواية«ونستخدم مصطلح الخبر هنا بمعنى مخصوص،وهو مجموع الأحداث والشخصيات التي تمثل ضرباً من المادة الخام،التي بها قوام السردية قبل أن تتجسد في نص».

ومنه فالخبر هو المادة الأساسية التي يتشكل منها الحكيم، والخبر هو نقل أحداث بأسلوب مباشر أو غير مباشر في إطار سردي شيق سواء أكان قصة أم حكاية أم سيرة... الخ ،ويقوم الراوي بسرد الأخبار بواسطة أسلوب خاص ينتهجه .

كانت الأخبار تروى شفاهة في العصر الجاهلي في صيغة أحاديث وقصص ونوادر «ونشير إلى أن القرن الأول الهجري لم يشهد بداية التأليف في الأخبار، وبدأ التدوين في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، واستمر في القرنين الثالث والرابع الهجريين، ونلمس ذلك في المؤلفات من قبيل: أخبار اليمن لعبيد بن شر بن الجرهمي، وعيون الأخبار لابن قتيبة». شهد القرن الثاني للهجرة البداية الفعلية لتدوين بعدما كان تتداول شفاهة، وظهرت كتب متخصصة في تدوين الأخبار ومنها كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وفي سياق متصل حاول الناقد سعيد يقطين العودة إلى التراث العربي «وتأصيل مصطلح الخبر عبر استقرار دوران هذا المصطلح على السنة القدماء وكتابتهم... ورأى أن الأنواع الخبرية الأصول هي: الخبر، والحكاية والقصة والسيرة».

عاد الناقد سعيد يقطين إلى التراث العربي القديم ليبحث عن توظيف مصطلح الخبر عند الأدباء، وبحكم تداوله الواسع بين العلماء والأدباء في الأدب العربي القديم، فهو مصطلح أصيل، ولقد ميّز سعيد يقطين بين ثلاثة أجناس للكلام العربي «هي: الخبر والحديث والشعر واهتم بالخبر من حيث أنواعه وأنماطه».

قدّم سعيد يقطين تقسيماً جديداً للكلام العربي، وتمثل في الخبر والحديث والشعر، ويعد الخبر أحد الأجناس الأدبية ودخل الخبر في تكوين أهم الفنون السردية «ويعد الخبر أقدم الأشكال السردية العربية؛ لأنه نتاج شفوي تناقله الرواة واستمتع به الناس في مجالسهم الخاصة، وقد سمي الخبر أيضاً حديثاً تعبيراً عن صفته الشفوية».

ومنه فالخبر عندما كان يُنقل شفاهة سُمي حديثاً، والحديث هو الكلام الذي يلقي على مسامع المتلقي، ويتميز الخبر عند عبد الفتاح كيليطو بشيء مهم «هو الشخص الذي يُتكلم عنه بضمير الغائب هو الشخص العمومي، إن الذي يجمع الأخبار لايهمه مايجول في نفس الشخص، لاتهمه خواطره، وإنما أفعاله وأقواله في موقف معين».

تطور التأليف في الأخبار، وأصبحت الأخبار فناً متخصصاً عند الأدباء، وتوسع مجال رواية الأخبار «ولقد بلغ من إيثار العرب للأخبار أن الجاحظ يجعلها من المعارف (الأدبية) التي يقصد إليها قصداً».

ركز الجاحظ كثيراً على الخبر وأولاه أهمية كبيرة في تدوين المعرفة العربية، ولكون الخبر أصل مادة الحكى في معظم الفنون السردية، وكما أننا نجد «في المجتمعات التي لم تعرف الكتابة انتقلت المعلومات المهمة أو ذات القدسية في كثير من الأحيان إلى الأجيال الجديدة في شكل قصة... تضمنت عناصر القصص الأخبار في بنيتها مثل: يحكى أنه ذات مرة».

احتل الخبر مكانة هامة في المجتمعات ذات الثقافة الشفاهية، وكانت مرويات الأخبار في البداية تنقل شفاهة، وشكلت الأخبار مادة الحكى في جميع القصص، وكان الأسلوب القصصي هو المفضل لدى القدماء في نقل الأخبار، وظهرت كتب متخصصة في رواية الأخبار «ويظل كتاب عيون الأخبار " لابن قتيبة في مقدمة الكتب في هذا المجال.. وكذلك كتاب المبرد "الكامل"، ويأتي كتاب الأغاني ليكون موسوعة من الأخبار التاريخية والاجتماعية والأدبية».

مما هو معلوم أن المصنفات الأدبية القديمة كانت مختلطة من معارف وعلوم لغوية وأدبية، ولكنها في نفس الوقت تضمنت أخبار مهمة مثل كتاب الأغاني فهو شمل مجموعة من الأخبار والقصص المختلفة والمتنوعة «ويعد الخبر نواة المحكيات جميعاً مثل: القصة والحكاية والسيرة؛ لأن هذه الأجناس القولية تتقاطع كلها في جنس أشمل، وذلك من حيث الصيغة الإخبارية، فالخبر ينضوي تحت مفهوم القص؛ لأنه يشكل أبسط الوحدات الحديثة الصغرى، التي تتشكل منها القصة».

نجد أن الخبر أصل الأنواع القصصية مثل القصة والحكاية والسيرة، والخبر هو الوحدة الأساسية التي تتشكل منها القصص والحكايات، ويُستعمل مصطلح الخبر كمرادف لمصطلحات كثيرة منها: القصة، الحكاية.

3-أنواع الخبر :

نجد في الأدب العربي القديم أن الخبر هو على نوعين :

أ- النوع الأول: الخبر البسيط :نجده فيكتب الاختيارات من قبيل "البيان والتبيين" للجاحظ والكامل للمبرد، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والعقد الفريد لابن عبد ربه، والأمالى للقالى، والقسم الأكبر منها ذو بنية بسيطة قائمة على ثنائية سردية واحدة ترد مفردة أو تتكرر في الخبر الواحد والثنائية، التي تغلب على هذه الأخبار هي ثنائية" الاستخبار والإخبار" فالخبر يقوم عادة على استعادة قول مأثور أو نقل حوار طريف بين شخصين».

ومنه فالخبر البسيط هو الذي يحمل حدثاً بسيطاً، ويشمل على ثنائية سردية هي(الاستخبار /الأخبار) نجدها واضحة في أخبار الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" وكذلك عند ابن قتيبة في كتابه عيون الأخبار، وابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد والقالى في كتابه الأمالى، وتلك هي أمهات الكتب الأدبية، ونجد أن سمة الخبر البسيط يقوم على بنية سردية بسيطة.

ب-النوع الثاني:الخبر المركب : يكون في القصص وأحداث سردية يمكن أن يستقل بعضها عن بعض ، إلا أن تعاقبها في نص واحد ينشأ بينها وحدة جديدة لها بنية مخصوصة».

حمل الخبر المركب أحداث عديدة في السرد، وهي ذات بنية مركبة وتلك «الأخبار فإنه لايقدم القول أو الحوار مصمماً وإنما يمهد له بمقدمة سردية تنشئ وضعاً أولياً يكون من شأن القول أو الحوار أن يقلبه فيصبح الكلام ذا دور تحويلي».

نجد أن الأخبار المركبة تبدأ بمقدمة سردية، وبالإضافة إلى ذلك تتكون من بنية مركبة، والفرق بين الخبرين البسيط والمركب أن «الخبر البسيط يقوم على جمع لبنى بسيطة، وأما الثانية فتتهض على بنى معقدة يعسر علينا إرجاعها إلى جملة من البنى البسيطة، والضرب الثاني قوامه بنى بسيطة مختلفة، وأكثر عددًا من سابقة».

ومنه فالأدب العربي عرف نوعين من الأخبار هما: الأخبار البسيطة، التي يكون فيه الحدث بسيطاً ذا بنية بسيطة، والأخبار المركبة تتشكل من أحداث عديدة مركبة ومتعاقبة مثلما نجد في نص ألف ليلة وليلة، ونشير هنا إلى «أن تطور الخبر يجعله يتحول من شكله البسيط إلى شكل مركب أكثر تعقيداً وتفصيلاً، يفقده نسبياً خصوصياته النوعية ويدفعه بالضرورة إلى الاندماج في نوع آخر قد يكون قصة أو حكاية».

تطورت الأخبار البسيطة إلى أخبار مركبة، وهذا يعني اختلاطها مع أخبار أخرى من نفس نوعها، وهذا قد يجعلها لا تختلف عنها من جهة، ويلغى طابع الخصوصية بين الأخبار من جهة أخرى .

5-خصائص أدب الأخبار :

تميز أدب الخبر بخصائص عديدة نذكر منها :

أ-أدب الأخبار أدب يقدم القول المحكم على البناء المحكم

ب-بساطة بنية الأخبار ،ونلتمس البساطة في الحركة السردية، التي يمكن أن تختزل غالباً في ثنائية سردية واحدة (مثلما نجد في الكامل للمبرد والبيان والتبيين للجاحظ)

ج-تقديم الوظائف على الشخصيات في الأخبار الأدبية .

د-بين الشعر والخبر علاقة قديمة منقلبة».

من خصائص الأخبار عديدة، ومنها تصدر الوظيفة على الشخصية في ذكر أخبارها، وربط الخبر بالشعر لتأكيد صحة الخبر، ونلاحظ أن رواة الأخبار جعلوا صحة الخبر من أهم أولوياتهم، وكما أن «المشكلة التي تواجه كتاب الأخبار في أسلوب السرد المباشر هي كيف يمسك الكاتب باهتمام القارئ منذ البداية كما أن الفقرة الأخيرة يجب أن تكون أسرة».

نلاحظ أن السرد المباشر للأخبار قد يؤدي لملل المتلقي، لذلك وجب على السارد أن يتبع تقنية خاصة، ومن أهمها اللغة السردية الراقية، التي يهيمن بها السارد على المتلقي، ويجعله يتفاعل مع أخباره.

6- منهجية إيراد الأخبار:

اتباع الأدباء طرق عديدة في إيرادهم للأخبار في كتبهم، حيث أورد الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" العديد من الأخبار حول الأعلام، ومنهم النساك والقصاص «وللنساك حظ وافر من عناية الجاحظ في الكتاب، فهؤلاء النساك الروحيون، قد نبغ منهم في البيان... وأما القصاص فقد كانت صناعتهم تقضيهم العناية بقوة البيان، وحسن الأداء». شمل كتاب البيان والتبيين على أخبار أعلام الأدب ومعارفه، ومن طرق رواية الأخبار نذكر أن الجاحظ غلب على سرده للأخبار ميولاته الأدبية، فتوفر لديه بلاغة الأسلوب السردية «ويمكن أن نوجز الخطوات التي اتبعها الجاحظ في جمع الأخبار فيما يلي:

- إن المشاهد للمادة التي يقوم الجاحظ بجمعها خاصة من المصادر البشرية، وعن طريق السماع من الملاحظ أن هذه المادة تعكس حساً إخبارياً .

- قرب الجاحظ واختلاط الشديد بالإخباريين في زمنه، حتى يأخذ عنهم بعض ما يتابعه ويقدم الجديد بشأنه ويضيف إليه ما يستطيع كما يتعرف على طرقهم في الحصول على مادتهم الإخبارية، ويختار منها ويطورها

- الاهتمام بتنوع مادته الإخبارية، وجعلها تضرب في أكثر من مكان وموقع، وتحدث عن أكثر من عرض .

- الاهتمام بأن تستقطب أخباره جميع الطبقات الموجودة في مجتمعه».

اعتمد الجاحظ على طريقة السماع من الرواة، وأظهر حرصه في انتقاء مادته الإخبارية، ويمكننا القول بأن الجاحظ وُفق في روايته للأخبار الهامة، وحرصه على تنوع أخباره أدبية واجتماعية... الخ، واهتمامه بجميع فئات الطبقات الاجتماعية، ومنه كان الجاحظ أدبياً إخبارياً، ومؤرخاً صاحب نظرة دقيقة .

وتجدر الإشارة إلى أنه حصل تقارب في الأخبار الواردة في كتاب "البيان والتبيين" مع أخبار كتاب المستطرف لشهاب الدين الإبيشي، الذي يعد «من أمتع وأظرف الكتب الأدبية والدينية والتاريخية جمع فيه مؤلفه كل ما أسعفته به ذاكرته من نواذر الأخبار والأشعار والخطب والكلام الحسن».

اتضح لنا أن كتاب المستطرف للإبيشي جمع معارف أدبية ودينية وتاريخية، وانفرد بذكر نواذر الأخبار، والغالب على كتب الأخبار هو سرد الأحداث بأسلوب علمي جاف، ولكننا وجدنا بعض الاستثناءات مثلما جاء به كتاب المستطرف في كل فن مستطرف، فهو أمتع وأظرف الكتب الأدبية جمع فيه شهاب الدين الإبيشي بين المتعة والفائدة، وأيضاً يعد كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني «النموذج الحقيقي لقصص عرب الشمال.. فجل ما جمعه أبو الفرج الأصفهاني، ساقه بشكل قصصي ممتع حيث يورد الحدث بقلب فني، وعضده تاريخياً يذكر سنده روايته، وهو بذلك يعتمد الحقيقة أساساً لكل ما يورد من أحداث وقصص» أورد الأصفهاني أخباره في أسلوب سردي شيق، متحريراً صحة الخبر، واهتم بذكر سند رواية أخباره «ونجد الأصفهاني يعنون فصوله بكلمة (خبر/إخبار) وقد يشفعها بكلمة "ذكر" فيحدد بذلك شكلها الفني، ويعرض الروايات المختلفة للخبر الواحد فتتعدد وجهات النظر والأصوات الخبرية، ولكن في النهاية نحصل على مادة سردية مكتملة».

تحرى الأصفهاني للدقة جعله يورد روايات كثيرة للخبر، ولذلك اتسعت معارف كتابه الأغاني، ومن الانتقادات الموجهة لهذا الكتاب، وبالذات حول منهج الأصفهاني، حيث «تجلى لنا أن نقد الأصفهاني لم يكن في إيراد الأخبار والقصص، كنمط فني أدبي غرضه الإبلاغ والإمتاع، وإنما انتقد من الجانبين التاريخي والأخلاقي، ولكي يتفادى أبو الفرج الأصفهاني نقد معاصريه

لجأ إلى سند الرواية لإثبات حقيقة الحدث، والقاء المسؤولية التاريخية على الرواة الذين أخذوا عنهم».

اعتمد الأصفهاني على ذكر سند الرواية لتحميل الرواة مسؤولية الأخبار التي يوردها في كتابه، وتجنب نقد الأدباء والنقاد له، ومنه فكتاب الأغاني شامل جمع بين الفائدة والترويح عن نفس المتلقي، وصحة الأخبار وبلاغة أسلوب سردها «فيذكر الشاعر الذي غني شعره، ويذكر ترجمته ونسبه، والأخبار المتصلة به ومختارات من شعره... وهو يروي الأخبار والأشعار والحكايات، وكل ماجاء في هذا الكتاب الضخم رواية».

حرص الأصفهاني على تنويع مادته الإخبارية في كتابه "الأغاني" فكانت مادته أدبية (شعر ونثر) وتاريخية ودينية «وآثار وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة وأخبارها المأثورة، وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الإسلام». ظهرت قيمة كتاب الأغاني للأصفهاني في كونه موسوعة معرفية من الأخبار الأدبية والاجتماعية «فكتاب الأغاني يعد مكتبة في كتاب واحد، فقد حوى قصص القبائل العربية، وأخبار الأمراء والخلفاء بالإضافة إلى تصوير حياة العرب الاجتماعية».

تعد أخبار كتاب الأغاني للأصفهاني بمثابة وثيقة أدبية تاريخية واجتماعية تؤرخ لحياة العرب وأمرائهم وخلفائهم وشعرائهم، وعندما نعقد مقارنة بين كتب الأخبار الأدبية «نلاحظ في كتب الأخبار الأولى خصوصاً في كتب الجاحظ والمبرد وابن قتيبة أن أصحابها لم يلتزموا بالإسناد على نحو متصل، وعلى خلاف ذلك نجد الأصفهاني ذكر أساليب الخبر ونجد أن الجاحظ حين ينقل الخبر يخرج عن حد الرواية إلى حد التاريخ».

حرص الأصفهاني على ذكر الإسناد للخبر، الذي يورده في كتابه "الأغاني"، وعلى خلاف ذلك فالجاحظ والمبرد وابن قتيبة لم يلتزموا بالإسناد في معظم أخبارهم، واختلفت طريقة الأدباء في سرد الأخبار، فكان الجاحظ ذا توجه بلاغي في سرد الأخبار، وأما الأصفهاني فمال نحو ذكر الجوانب التاريخية.

وفي الأخير نذكر أن الخبر هو أصل الفنون السردية القديمة، وحصل تطور في نقل الخبر من الأسلوب الشفاهي في السرد إلى الكتابة والتدوين في أدبنا العربي القديم، وأصبح للأدباء مناهج خاصة في تدوين الأخبار، ورواياتها في أسلوب قصصي شيق، وظهرت كتب عديدة متخصصة في رواية الأخبار مادلاً على قيمة الخبر وأهميته البالغة في الأدب العربي القديم.